بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام

الخُطبةُ الأُولَى:

اللَّهُمَّ لك الحمدُ بكُلِّ نِعمةٍ أَنعمتَ بها علينا مِن قديمٍ أو حديثٍ، أو شاهدٍ أو غائبٍ، أو حيٍّ أو ميّتٍ، لك الحمدُ بالإسلامِ، ولك الحمدُ بالإيمانِ، ولك الحمدُ بالقرآنِ، لك الحمدُ في كلِّ حالٍ، ولك الحمدُ حتَّى تَرْضى، ولك الحمدُ إذا رَضِيتَ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ.

أمَّا بعدُ؛ قصَّتُنا لِهذه الجمُعةِ سوف تَكونُ مع خليلِ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام.

وُلِد إبراهيمُ عليه السلام –كما ذَكَرَ ابنُ كَثيرٍ– بأرضِ بابِلَ، وكانت وِلادتُه بعدَ أن بَلَغَ والدُه من العُمُرِ خَمسًا وسبعين سَنةً، وكان اسمُ والدِه آزرَ، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. وكان مَولِدُ خليلِ الرَّحمنِ إبراهيمَ عليه السلام في عَهدِ النَّمرُودِ، وكان النَّمرُودُ حاكمًا مُستبِدًّا جبَّارًا، كانت رعيَّتُه تتقلَّبُ في دياجيرِ الجهلِ والضَّلالةِ، كما كانوا يعبُدونَ الحجارةَ الصَّمَّاءَ، والتَّماثيلَ البَكماءِ، وقد استَخفَّ النَّمرُودُ بقَومِه، فنصَّبَ نفْسَه إلهًا لهم، ودعا النَّاسَ إلى عِبادتِه، فأطاعوه.

في هذه البيئةِ الفاسدةِ وُلِد خليلُ الرَّحمنِ إبراهيمُ عليه السلام، وكان أبوه آزرُ من أَلَدِّ أعدائِه، وكذلك كان أقرباؤُه وأشِقَّاؤُه وأترابُه، وهذا يعني أنَّه كان غريبًا بينَ أهلِه وذَوِيهِ، ولَمَّا شَبَّ إبراهيمُ عليه السلام تزوَّج بامرأةٍ تُسمَّى سارَّةَ، وكانت عقيمًا لا تَلِدُ، وقد عُرِف إبراهيمُ عليه السلام منذُ نُعومةِ أظفارِه بِصائبِ رأيِه، وثاقبِ فِكرِه –أنَّ اللهَ واحدٌ أحدٌ، ليس له شريكٌ في المُلكِ، وأَلقى اللهُ في قلبِه كُرْهَ الأصنامِ الَّتي كان يَعبُدُها قَومُه؛ لأنَّها لا تَجلبُ لهم نفعًا، ولا تَدفعُ عنهم ضُرًّا.

عِبادَ اللهِ: ابتَعث اللهُ إبراهيمَ عليه السلام بالرِّسالةِ وهو في بابِلَ، فقام بالواجبِ الَّذي أَمَره اللهُ به خيرَ قيامٍ، وصبَرَ على الأذَى والابتلاءِ، وقابَلَ التَّهديدَ والوعيدَ بعزيمةٍ أشدَّ رُسوخًا من الجبالِ، وعندما تأكَّد من إعراضِ قَومِه عن دعوتِه، هاجَرَ في أرضِ اللهِ الواسعةِ، يَبذُرُ بُذورَ الإيمانِ في كلِّ أرضٍ تطَؤها قَدَماه، فاستحَقَّ بصبرِه ورأيِه أن يَكونَ أبًا للأنبياءِ، وإمامًا للأتقياءِ، وقُدوةً للموحِّدينَ الأُمناءِ.

أيُّها المسلمونَ: ونظرًا لأهمِّيَّةِ الدَّورِ الَّذي قام به إبراهيمُ عليه السلام، فقد ذُكِرتْ قصَّتُه في خَمسٍ وعشرين سورةً، وفي ثلاثٍ وستِّينَ آيةً من القرآنِ.

عِبادَاللهِ: إنَّ البيئةَ الَّتي نشَأَ فيها إبراهيمُ عليه السلام سَيْطَرَ عليها تعدُّدُ الآلهةِ، ونُصِبتْ فيها التَّماثيلُ لِعبادتِها، لذلك عَزَمَ إبراهيمُ عليه السلام على دعوةِ قَومِه، وتخليصِهم من هذه الأباطيلِ، وهذا ما يَذكرُهُاللهُ لنا بقولِه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٧]؛ كان تعليلُ هؤلاء القومِ لِعبادتِهم الأصنامَ هو أنَّهم وَجَدوا آباءَهم عابدينَ لها فاقتدَوا بهم، فأراد إبراهيمُ عليه السلام أن يحرِّرَ قومَه من عِبادةِ الأصنامِ، وما يَستتبِعُ ذلك من الاعتقادِ بالخُرافاتِ والأساطيرِ؛ قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٣]، هذا هو إيمانُ إبراهيمَ عليه السلام يا عِبادَاللهِ، إنَّه إيمانُ المستسلمِ لربِّه بكلِّ جارحةٍ من جوارحِه، إنَّه الإيمانُ الإيمانُ الَّذي يَنزِعُ مِن النَّفسِ همومَها وأحزانَها، ويُسبِغُ عليها طُمأنينةً وسعادةً، إنَّه الإيمانُ الَّذي يخلِّصُ النَّفسَ من الاستسلامِ للخُرافاتِ، فلا رازقَ ولا شافيَ، ولا مُحيِيَ، ولا مُميتَ، ولا غافرَ للذَّنبِ إلَّااللهُ ربُّ العالَمينَ.

أيُّها المسلمونَ: كان والدُ إبراهيمَ في مقدِّمةِ عابدِي الأصنامِ، بل كان ممَّن يَنحَتُها ويبيعُها، وقد عَزَّ على إبراهيمَ فِعْلُ والدِه وهو أقربُ النَّاسِ إلى قلبِه، فرأَى مِن واجبِه أن يَخُصَّه بالنَّصيحةِ، ويُحَذِّرَه من عاقبةِ الكفرِ، ولكن بأيِّ أسلوبٍ خاطَب إبراهيمُ أباه؟ لقد خاطَبه بلهجةٍ تَسيلُ أدبًا ورِقَّةً، مبيِّنًا بالبرهانِ العقليِّ بُطلانَ عِبادتِه للأصنامِ؛ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِاللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨]، هذا كلامٌ يَهُزُّ أعطافَ السَّامعينَ، انظُرْ كيف استهَلَّ إبراهيمُ كلامَه عند كلِّ نصيحةٍ بقولِه: يا أبتِ؛ توسُّلًا إليه، واستعطافًا لقلبِه، مع استعمالِ الأدبِ الجَمِّ.

ومن ناحيةٍ أُخرى يحاولُ إبراهيمُ أن يَكسِرَ بذلك الأسلوبِ الجذَّابِ حِدَّةَ أبيه؛ حتَّى يستطيعَ أن يُبلِّغَه رسالةَاللهِ، وهذا أَمرٌ معلومٌ، فإنَّ غالبَ الآباءِ هداهماللهُ لا يُمكِنُ أن يَقبلَ شيئًا من ولدِه لأنَّه يرى أنَّه أقلُّ منه، وأنَّه خرَج أساسًا من صُلْبِه، فلا يُمكِنُ أن يَصِلَ إلى مستواه، وهذا الَّذي كان يفكِّرُ فيه والدُ إبراهيمَ عليه السلام، ولا شكَّ أنَّ هذا تفكيرٌ غيرُ صحيحٍ، فقد يَكونُ الوالدُ صالحًا، ويخرجُ أولادُه على غيرِ صلاحِ الأبِ، والعَكسُ أيضًا أمرٌ واردٌ، فيَكونُ الولدُ مهتديًا بنُورِاللهِ عزَّ وجلَّ، والأبُ يَعيشُ في ظُلمةِ الجهلِ والهوى، كما كان حالُ إبراهيمَ مع أبيه، فحاول إبراهيمُ أن يُقيمَ الحُجَّةَ على أبيه وهو هادئٌ غيرُ ثائرٍ، بعدَ أن ناداه بذلك الأسلوبِ الموجِبِ لِلحنانِ والعطفِ: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]؛ كيف تَعبدُ يا أبتِ إلهًا لا يسمعُك إذا ناديتَه، ولا يُبصرُك إذا اقتربتَ منه، ولا يَجلِبُ لك نفعًا أو يدفعُ عنك مكروهًا؟ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]؛ لَم يبدأْ إبراهيمُ عليه السلام حوارَه مع أبيه بالحديثِ عن غزارةِ عِلمِه، وقوَّةِ حُجَّتِه، وشدَّةِ ذكائِه، كما أنَّه لم يَصِفْ أباه بالجهلِ، ولو قال ذلك لكان صادقًا، وهذا ما يجبُ أن يتنبَّه إليه الأبناءُ، وهم يواجِهون مَن هم أكبرُ منهم، سواءً كانوا الآباءَ، أو مِن القَراباتِ والأرحامِ، فإنَّ طبيعةَ النُّفوسِ لا تَقبَلُ النَّصيحةَ ممَّن هو أصغرُ منها، ولو كان على عِلمٍ ودرايةٍ.

لكنْ كيف كانت مقابَلةُ الوالدِ لولدِه إبراهيمَ؟ لم يتقبَّلِ النَّصيحةَ، وصار يهدِّدُ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]؛ لئن لم تَنتهِ يا إبراهيمُ عن ضلالِك، وتَعُدْ عن باطلِك؛ لأَرمينَّك بالحجارةِ، وما عليكَ الآنَ إلَّا أن تَخرُجَ مِن دارِي وتَعتزلَ مَجالِسي.

وهكذا طُرِدَ إبراهيمُ عليه السلام من مَنزِلِ أبيه؛ لأنَّ ذلك الوالدَ لم يُرِدِ الهدايةَ، ولا يريدُ أن يَكونَ ولدُه محافِظًا على أوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أمامَه، والأبُ يخالفُ اللهَ، فأفضلُ حَلٍّ أن يَطرُدَه ولا يَراه أمامَه.

بماذا قابَلَ إبراهيمُ معامَلةَ أبيه القاسيةِ؟ لم يقابِلْ والدَه إلَّا بقولِه: سلامٌ عليكَ. كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، أي: لن يَصِلَك منِّي أيُّ مَكروهٍ، ولن يَنالَك منِّي أذًى، بل أنت سالمٌ من ناحيتي، وفوقَ كلِّ هذا سأدعو اللهَ -مع أنَّك عاصٍ له- ألَّا يعاقبَك وأن يَغفرَ لك.

عندها خرَجَ إبراهيمُ عليه السلام مِن عندِ أبيه، واعتزَلَ القومَ كلَّهم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]؛ اعتزَلَ إبراهيمُ أباه وقومَه، فكان لا يَحضُرُ في أفراحِهم ولا أعيادِهم ولا نَدواتِهم؛ ومع ذلك كان يدعو لأبيه في ظَهْرِ الغيبِ، عسى اللهُ أن يَهديَه، ولكنَّ هذه الدَّعوةَ لم تَستمِرَّ، فبعدَ أن عَلِمَ أنَّ أباه لا يُمكِنُ أن يهتديَ، وأنَّه سوف يَلقَى اللهَ عزَّ وجلَّ وهو كافرٌ، أَمَره اللهُ عزَّ وجلَّ أن يَتبرَّأَ منه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

أيُّها المسلمونَ: بَعدَ ذلك عَزَم إبراهيمُ عليه السلام على تحطيمِ أصنامِ القومِ، ورأى أنَّها هي الطريقةُ العمليةُ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بأنَّ هذه الأصنامَ لا تَضُرُّ ولا تَنفعُ، فالبرهانُ العمليُّ له في النَّفسِ البَشريَّةِ وقعٌ كبيرٌ، هو أشدُّ أثَرًا من الوعظِ والإرشادِ.

تَحيَّنَ إبراهيمُ الفُرصةَ المناسبةَ لتحقيقِ ما عَزَم عليه، حتَّى كان يومُ عيدٍ عندَهم، خرَج معهم إبراهيمُ عليه السلام، ثم انتهزَ فُرصةَ غَفلتِهم، ورجَع أدراجَه نَحوَ المكانِ الَّذي فيه أصنامُهم، وكان قد صمَّم على تحطيمِها، وَصَلَ إبراهيمُ عليه السلام إلى الهيكلِ الَّذي أُقيمت فيه أصنامُهم، وكان بعضُها إلى جانبِ بعضٍ، يتصدَّرُها كبيرُها، ورأى أمامَها ما تركَه القومُ قُربانًا لها من الطَّعامِ والشَّرابِ؛ لِتأكلَه في زعْمِهم، فخاطبَها إبراهيمُ ساخرًا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١]، فلمَّا لَم يُجِبْه أحدٌ، قال: ﴿مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٢]، ثُمَّ انحنَى عليها ضربًا بيدِه فكسَّرها كلَّها بفأسٍ كان معه، وجعلَها قِطَعًا صغيرةً، أما الصَّنمُ الكبيرُ فأبقاه ولَم يَكسِرْه، وهو أكبرُ الآلهةِ عندَهم، وعلَّق الفأسَ بيدِه، ثُمَّ غادَرَ الهيكلَ؛ قال سبحانه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، وجاء في آيةٍ أُخرى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨]؛ فإبراهيمُ عليه السلام أراد بتحطيمِه لهذه الأصنامِ أن يُقيمَ دليلًا حسِّيًّا لقومِه على بطلانِ عِبادةِ الأصنامِ، فلو كانت آلهةً حقيقةً لَدافعتْ عن نَفْسِها.

بارَكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ والسُّنَّةِ، ونفَعَني وإيَّاكم بما فيهما من الآياتِ والذِّكرِ والحكمةِ، أقولُ ما سَمِعتم، وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكم من كُلِّ ذنبٍ وخطيئةٍ؛ فاستَغفِروه وتوبوا إليه إنَّ ربِّي لَغفورٌ رحيمٌ.

الخُطبةُ الثَّانيةُ:

أيُّها المسلمونَ: رجَعَ القومُ بعدَ أن احتفَلوا بِعيدِهم، فرأَوا ما حَلَّ بأصنامِهم، فراعَهم ذلك، وتساءلوا فيما بينهم عن الفاعلِ الَّذي نال من مقدَّساتِهم، فقال بعضُهم: سَمِعنا فتًى يَذكُرُ هذه الأصنامَ بسُوءٍ يُسمَّى إبراهيمَ، كان مِن عادَتِه أن يَعيبَها ويستهزِئَ بها، وهو الَّذي نظنُّه فَعَلَ بها هذا الفِعلَ.

وَصَلَ الخَبَرُ إلى الحكَّامِ، فقالوا لجنودِهم: أحضِروه لِنحاكِمَه على مَشهدٍ مِن النَّاسِ. فجِيءَ به عليه الصلاةُ والسلامُ، فسألَه الحكَّامُ ءأنتَ فعلتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيمُ، عندَها وَجدَ إبراهيمُ الفُرصةَ سانحةً لِيُبلِّغَ قومَه ويوصِّلَهم إلى الحقيقةِ، فقال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، عندَها أدركَ القومُ، فأطرَقوا رؤوسَهم من الخجلِ، لكنَّهم بِكفرِهم وعِنادِهم عادُوا إلى مجادَلةِ إبراهيمَ قائلينَ: إنَّك تَعلَمُ أنَّ هذه الأصنامَ لا تتكلَّمُ، فكيف تَطلُبُ منَّا أن نَسألَها؟ عِندَها بَرَزتْ حُجَّةُ إبراهيمَ مُدوِّيةً مجلجِلةً تَقرَعُ آذانَهم، في مِثلِ قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]

وبَعدَ ما رأى القومُ أنَّه لا يُمكِنُ مُناظرةُ إبراهيمَ عليه السلام بالحُجَّةِ، استخدَموا القوَّةَ معه، فأصدَروا حُكمَهم عليه بالموتِ حَرقًا، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وهذا هو سلاحُ أهلِ الباطلِ الَّذي يَلجؤون إليه دائمًا في كلِّ عصرٍ، فأجمَعَ القومُ على إحراقِه بالنَّارِ، ولكنْ أيُّ نارٍ؟! بَنَوْا بُنيانًا شاهقًا، ووضَعوا فيه كَمِّيَّاتٍ كبيرةً من الحطبِ، شارَكَ القومُ كلُّهم في جَمعِها، قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]، قال ابن إسحاق: (وجَمَعوا مِن الحطبِ شهرًا، ثُمَّ أوقَدوها، فاشتعلت النَّارُ واشتدَّت، حتَّى إنَّ الطَّائرَ لَيَمُرُّ بجَنَباتِها فيَحترقُ من شِدَّةِ وَهَجِها، وعندما أرادوا حَرْقَ إبراهيمَ عليه السلام، لم يستطيعوا الاقترابَ من النَّارِ لِشدَّةِ حَرِّها، فوضعوه في المَنجَنيقِ، وأَلقَوْه مِن بَعيدٍ مُكتَّفًا مَغلُولًا.

وفي تلك اللَّحظاتِ كان إيمانُ إبراهيمَ بربِّه أشدَّ رُسوخًا من الجبالِ الرَّواسِي، وكان ثِقتُه بنَصرِ اللهِ وتأييدِه أَقوى من الأرضِ ومَن عليها، ولِهذا لم يَكترِثْ لجماهيرِهم المحتشِدةِ، ونيرانِهم الملتهِبةِ، وكلماتِهم النَّابيةِ. عن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ قال: (كان آخرَ قولِ إبراهيمَ حين أُلقيَ في النَّارِ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ) [أخرجه البخاريُّ (٤٥٦٤) عن ابن عباس ﷺ]. وقالها أيضًا رسولُنا محمَّدٌ، حِينَ قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وكذلك إبراهيمُ، انقلَبَ بنِعمةٍ مِن اللهِ وفَضلٍ لم يَمسَسْه سُوءٌ.

فوَاللهِ إنَّها لَكلمةٌ نافعةٌ في مواقفِ الضِّيقِ، وعندما يشتدُّ الكَرْبُ بالمسلمِ، لو قالها مِن قلبٍ صادقٍ موقِنٍ بنصرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حَسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ. عندَها نَزلتْ رحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ على نبيِّه؛ ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فسُلِبتِ النَّارُ الخاصِّيَّةُ الَّتي أعطاها اللهُ عزَّ وجلَّ، وهي الإحراقُ، لِتكُونَ بأمرِه عزَّ وجلَّ بَرْدًا وسلامًا: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، خرج خَليلُ الرَّحمنِ من النَّارِ سليمًا مُعافًى، وقومُه يشاهِدونه ولا يَتَّعظونَ؛ لأنَّ اللهَ قد كَتَبَ عليهم الهلاكَ بكُفرِهم وعنادِهم؛ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

ومن سُننِ اللهِ أن يَنصرَ رُسلَهُ إذا بَلَغَت الشِّدَّةُ بهم مُنتهاها، ويَخذُلَ أعداءَه؛ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

أيُّها المسلمونَ: نَودُّ أن نَقِفَ وَقفةً بسيطةً مع حَرقِ نبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام بالنَّارِ، فاخترنا لكم قصَّةَ الوَزَغِ. عن أُمِّ شَريكٍ ﷺ، أن رسولَ اللهِ أَمَرَ بقَتلِ الوَزَغِ وقالَ: «كان يَنفُخُ على إبراهيمَ عليه السلام» [أخرجه البخاريُّ (٣٣٥٩) عن أم شريك ﷺ]. وأنَّ امرأةً دَخلتْ على

عائشةَ ق، فإذا رُمْحٌ مَنصوبٌ، فقالت: ما هذا الرُّمْحُ؟ فقالت: نَقتُلُ به الوَزَغَ. ثُمَّ حدَّثَتْ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «أنَّ إبراهيمَ لَمَّا أُلقيَ في النَّارِ، جَعلَت الدَّوابُّ كلُّها تُطفِئُ عنه إلَّا الوزغَ، فإنَّه جَعلَ يَنفخُها عليه» [أخرجه أحمد (١١٣١) عن عائشة ق].

سبحانك يا ربُّ! أيُّ دِينٍ أَعظمُ من هذا الَّذي هَديتَنا إليه ورَزقتَنا اتِّباعَه؟! أيَّةُ مُشارَكةٍ وُجدانيَّةٍ تلك المشارَكةُ الَّتي أوجدَها الإسلامُ بينَ أفرادِه مُنذُ آلافِ السِّنينَ؟! وكلَّما رَأى المسلمونَ وَزَغًا سارَعوا إلى قَتلِه؛ لأنَّه كان يَنفُخُ النَّارَ على أبينا إبراهيمَ عليه السلام، ولأنَّ عدُوَّ إبراهيمَ عدُوٌّ لِكلِّ مسلمٍ، وسيبقَى المسلمونَ على ذلك حتَّى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، فلا وُدَّ ولا مُصالَحَةَ مع أعداءِ اللهِ ولو كانوا حيواناتٍ صغيرةً كالأَوزاغِ.

وقضيَّةُ الوَزَغِ وغيرِه يَعرِفُها خاصَّةُ المسلمينَ وعامَّتُهم، فلو رأَى فتًى صغيرٌ في قريةٍ نائيةٍ وَزَغًا؛ لَسارَعَ إلى قَتلِه؛ لأنَّه رأَى أهلَه يَقتُلونه، وسَمِعَ منهم أنَّه كان يَنفُخُ النَّارَ على خليلِ الرحمنِ عليه السلام.

ومِن المُحْزِنِ حَقًّا أنَّ هذه المشارَكةَ الشُّعوريَّةَ بينَ أعضاءِ الجسدِ الإسلاميِّ الواحدِ أصابَها كثيرٌ مِن الضَّعفِ والفُتورِ في زمانِنا هذا، فكم يُصابُ المسلمونَ في أَقاصي الأرضِ بِشتَّى المَصائبِ، فلا يتحرَّكُ المسلمونَ بِرَدِّ هذه المصيبةِ أو الكارثةِ، بل ولا حتَّى التأثُّرُ القلبيُّ! حتَّى هذا نُزِعَ من قلوبِ المسلمينَ، وإنْ تأثَّروا يَكُنْ تأثُّرُهم عابِرًا كسُحُبِ الصَّيفِ، ولِهذا أصبحتْ عمليَّاتُ إبادةِ المسلمينَ في أيِّ بُقعةٍ من الأرضِ قضيَّةً لا تَستحقُّ اهتمامًا، وما حَصَلَ من قَتلٍ لِحفَّاظِ القرآنِ وصحيحِ البخاريِّ في قُندُزَ في أفغانستانَ مِن قِبَلِ عُبَّادِ الصَّليبِ عنَّا ببعيدٍ، ولا تَجِدُ تأثيرَه في بلادِ المسلمينَ، مع بشاعةِ هذا الجُرْمِ العظيمِ.

اللَّهُمَّ أَرِنا الحقَّ حقًّا وارزُقْنا اتِّباعَه، وأَرِنا الباطلَ باطلًا وارزُقْنا اجتنابَه، ولا تَجعَلْه مُلتبِسًا علينا فنَضِلَّ، واجعَلْنا للمُتَّقِينَ إمامًا.

اللَّهُمَّ اختِمْ بالصَّالحاتِ أعمالَنا، وبالسَّعادةِ آجالَنا.

اللَّهُمَّ حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزَيِّنْه في قلوبِنا، وكَرِّهْ إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، واجعَلْنا من الرَّاشدينَ.

اللَّهُمَّ احفَظْنا بالإسلامِ قائمينَ وقاعدينَ وراقدينَ، ولا تُشمِتْ بنا أعداءً ولا حاقدينَ، واجعَلْنا من أوليائِكَ الصَّادقينَ.

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بكَ مِن جَهْدِ البلاءِ، ودَرَكِ الشَّقاءِ، وسُوءِ القضاءِ، وشماتةِ الأعداءِ.

اللَّهُمَّ أَبرِمْ لهذه الأُمَّةِ أمرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فيه أهلُ الطَّاعةِ، ويُذَلُّ فيه أهلُ المعصيةِ، ويُؤمَرُ فيه بالمعروفِ، ويُنهَى فيه عن المُنكَرِ؛ يا سميعَ الدُّعاءِ.

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى، ويَنهَى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ والبغيِ، يَعِظُكم لعلَّكم تذكَّرون؛ فاذكروا اللهَ العظيمَ الجليلَ يَذكُرْكم، واشكُرُوه على نِعَمِه يَزِدْكم، ولَذِكرُ اللهِ أكبرُ، واللهُ يعلمُ ما تصنعون.

أَعدَّها

د. سعيدُ بنُ سعدٍ آلُ حَمَّادٍ

www.alhmmad.net

١٤٣٩/٧/٢٠هـ